نعم ان تولستوي قد انتقد شعائر الكنيسة الارثوذكسية وهو من ابنائها وخالف بعض تعاليمها كما يظهر من مطالعة بعض مؤلفاته واخصها كتاب البعث غير انهُ اراد بهذا الانتقاد الاصلاح لا غير

وصفوة القول ان تعاليم تولستوي نافعة جدًّا للهيئة الاجتماعية . اما قيامة رجال الدين عليهِ وحرمانهُ من الكنيسة فامر يرجع الى افكارهِ الدينية. والحقيقة التي لامراء فيها انهُ فيلسوف عظيم اجمعت روسيا كلها والعالم اجمع على اكرامهِ وتعظيم قدرهِ لانهُ من نوابغ الرجال الذين افادوا نوع الانسان بافكارهم وسيرتهم المبرورة

نقولا شكري

التربية والتعليم عند القدماء(١)

(١)

ان التربية والتعليم هما صنوان . وقرينان . لا يمكن انسلاخ احدهما عن الآخر . لما بينهما من الارتباط المعنوي فكانهما اخوان وُلدا في جسم واحد تحركهُ روح واحدة . ولقد عرف القدماء هذه الصناعة ومارسوا التعليم والتهذيب . ولكن اختلفوا في مبادئها وطريقة القائها . فكانت لها مناهج متباينة واساليب متلوّنة بحسب حضارتهم او همجيتهم وهاك الآن مختصر تلك القواعد التي وضعتها كل امة :

التربية والتعليم عند المصريين — كانت تربيتهم دينية بحتة لاعمام العبادات فلذلك حصر العلم في كهنتهم وكانوا يمنون على من يعلمونهم ولو كانوا ملوكاً ودلت صفائح الآثار القديمة على آدابهم الرائعة ولاسيما كتاب الامير (بتاح حتب) في الآداب والعلم والسياسة وهو من آثار مكتبة باريس ترجمهُ بروكش . وفي شعر مصري ما معرّبهُ «كل صاحب حرفة مرؤوس الا العالم فانهُ رئيس نفسهِ » الى غير ذلك

عند البابليين والاشوريين والكلدانيين — عرفوا التعليم المجاني والعام

(١) مقتطفة من محاضرة مطولة ومن كتاب (الاسلوب القويم في التربية والتعليم) وهما تأليف صاحب المقالة وهو ممثل بالطبع مبنيّ على احدث الاساليب العصرية

والرياضة البدنية وانشاء المكاتب قرب المدارس للعائلة والتزين . واشتهرت آدابهم في عهد الدولة السمارية فانهم كتبوا في صحفهم : « النجيب في المدرسة يرتقي كالفجر » . وبيع العلم للاناث كالذكور مما دلت عليه مراسلات تل العمارنة وصفائح الآجر . وانشأوا المكاتب في المدن ونظموها حتى كانوا في اثناء الحروب يقتلون الناس ويستبقون الكتب لانها في حرز الآلهة . ومن اشهرها مكتبة (اشور بانيبال)

عند العبرانيين — كانوا في اول عهدهم يربون اولادهم في منازلهم ويشربونهم حب الاله واحترام وصاياه بحسب التوراة وبقوا هكذا الى سنة ٦٤ قبل الميلاد بدون مدارس ثم كثرت مدارسهم ومن اقوال التلمود : « ان اورشليم خربت لاهمال تعليم الاولاد » و « لا تقفلوا المدارس ولو كان الباعث على اقفالها الاضطرار الى ترميم الهيكل » و « لقد تعلمت كثيراً من معلمي وأكثر من ذلك من رفاقي وأكثر من هذا وذاك من تلاميذي » وكانوا يشترطون على الاساتذة ان يكونوا ليني الجانب صبورين مفيدين . وقد علموا القراءة والكتابة والتوراة ومبادىء التاريخ الطبيعي وعلم الفلك وشرح الاساتذة المماثل . وكانوا يعاقبون بالعقوبات البدنية لمن تجاوز احدى عشرة سنة حتى يضربوهم بالسياط

عند الهنود والصينيين — ان شرائع بودا والصفيحة المشهورة المتضمنة قصة ولد عندهم تدل على عنايتهم بالتربية والتعليم . وكذلك كتبهم واوراقهم المنسوبة اليهم تدل على كلفهم بالرياضيات والمعارف . ولقد تناولوا ما ادى علومهم من الصينيين الذين بنوا آدابهم على شرائع كنفوشيوس (كنفوشيوس) ومن قوانين مملكة الصين انه اذا قتل الابن احد اقربائه الحكومة حالاً ثم حكمت بجلد ابيه لانه لم يؤدبه فجزاء الوالد على اسرته . واغرب من ذلك كله انه اذا قتل ولد والده حكم بالقتل على الولد وعلى معلم المدرسة التي تلقى فيها العلم لانه لم يرشده الى وجوب اكرام والديه . ولقد انحصر علمهم في الكهنة ولاسيما البراهمة

عند الفرس — نقل قدماء الفرس آدابهم عن الهنود والصينيين وتلقوا كتبهم وانحصر علمهم في المجوس وكان تعليمهم بسيطاً للشعب روحياً ودينياً للمجوس وعسكرياً وسياسياً للجنود

وكانوا يبقون الولد في حجر والدته حتى الخامسة من عمره ثم يسلمونه للمعلم فيربيه تربية الحرب والسياسة الى خامسة عشرة فيصير جندياً الى الخمسين وترتقت معارفهم في زمن الامبراطورية. وكان ملوك الفرس يقاسمون العلماء بحثهم مع الجهلاء

ولقد شيدوا بعض المدارس ووضعوا اساليب التدريس والتربية. ومن سنة مناهج تربيتهم تربية اولادهم الصدق منذ نعومة اظفارهم حتى انهم كرهوا التجارة لانها تحمل على الكذب

عند الفينيقيين — دلت الآثار القديمة ان فتيان الفينيقيين كانوا يتخرجون بالعلوم في مدارس عامة تولى اتقان التدريس فيها اساتذة وشيوخ. وحصر العلم في كهنتهم فكانت مياكلهم مدارس وتعاليمهم دينية

عند اليونانيين — ارتقت التربية والتعليم في هذه الامة فبلغت غايتها بافضل الفلاسفة العظام كارسطو المعلم الاول وغيره من اساطين الحكمة وجهابذة الادب. ولكن الشعب اليوناني اختلف في مناهج التربية فكان فريق منهم وهم الاثينيون يعتنون بتربية العقل اكثر من الاجساد وفريق آخر وهم الاسبارطيون يربون الاجساد ويهملون العقول

ولكن اليونانيين اعتنوا في عهد فلاسفتهم بالرياضات الجسدية وتدسيس الاخلاق والحض على حب الوطن فكانت هذه المبادىء اساس تربيتهم الاولية

وامتازت قوانينهم في التربية والتعليم فمن مبادىء التربية الاعتدال والموافقة والترتيب في الاعمال وتنقيف الاخلاق والرياضة البدنية. ومن اساليب التعليم التي سنها سقراط المحاورة والمناقشة فاذا القى عليهم درساً لا يستعيدهم اياه عن ظهر القلب ولكنه يباحثهم به حتى يغرسه في اذهانهم ويشرح لهم الشرح الكافي لفهم ما لقنهم اياه ثم يكرره عليهم ويحفظ لهم ما درسوه مطبقاً على القواعد. ويلطف عواطفهم الى غير ما فيها من التأثير على قوى النفس وتدسيسها

ويجعل الكلام انهم اعتنوا بالقوى في الطلبة القوة المفكرة ثم المخيلة وبعد ذلك الذاكرة

واهم مدارس اليونان كانت مدرسة طاليس اول فلاسفتهم. واقدم مدرسة انشئت في اثينا في القرن السابع قبل الميلاد ثم مدرسة ارسطو في القرن الرابع

قبل الميلاد فمدرسة الاسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد ايضاً

عند الرومانيين — اقتفى الرومانيون اثر اليونانيين في الصناعتين المذكورتين ولكنهم نزعوا الى المصارعة والحرب عوض التروض الجسدي وكانوا حتى عهد شيشرون الشهير يحتقرون الادب والعلم ويفضلون عليهما التربية السياسية او العسكرية وكان العهد الذهبي لآدابهم في عصر اوغسطوس قيصر وما بعده . ولكن المدارس لم تنتشر عندهم فحصر التعليم في ابناء الاغنياء والمواطنين . وكان راتب الاستاذ نزراً يتقاضاه من آباء الطلبة . وكان الضرب بالعصا أو السوط من صفات مدارس تلك العصور . وعرفوا بعد ذلك التروض الجسدي والتمثيل الادبي اقتداء باليونان

عند العرب — ان التربية والتعليم عند هؤلاء أفردنا لهما بحثاً خاصاً في هذه المقالة كما سترى

عند الاوربيين — تحدّى الاوربيون اساليب اليونان والرومان في الصناعتين وبقوا يحذون حذوهم الى القرن الثامن عشر للميلاد بمناهج متوحدة

فلما نشأ الاستاذ بستالوزي الاسوجي سنّ نظام التعليم الحديث بانياً اياه على ركنين متينين (اولهما) ان يبدأ بالتعليم في البيت طبيعياً ثم يعتمد التلميذ على نفسه مع ادخال العلم النظري كالحساب العقلي والهندسة والرسم في دروسه (وثانيهما) ان تكون المدرسة محل راحة ونشاط التلميذ تطلق له فيه الحرية لاستعمال قواه واظهار نبوغه

فكانت خلاصة هذه المبادىء الاساسية في الفنين هي : صرف العقول عن درس اللغات والاقتصار عليها وحدها الى الاشتغال بالعلوم الطبيعية وتقوية المدارك العقلية

ثم انشأ فروبل الالماني مدارس الاطفال فصار التعليم اجبارياً . وأول من نادى به فردريك الكبير ملك بروسيا سنة ١٧٦٣ م . وانتبهت اليه فرنسا في عهد جان جاك روسو . وتلقنته اميركا فزادت عليه علم النفس (بسيكولوجيا) . وشاعت هذه المناهج الحديثة في روسيا واليابان سنة ١٨٧٢ م وانتشرت في بقية الممالك الاخرى

اما انكلترا فانها عرفتها سنة ١٨٣٤ م وبعد مضي ست وثلاثين سنة عليها ثالث خصل السبق في التعليم والاتفاق عليه حتى جرت شوطاً لم يشق لها بو غبار، واقتفت اليابان آثارها وعمت الاساليب الحديثة العالم فكثرت المدارس واعتني فيها بتعليم اللغات والرياضيات والتاريخ والعلوم الطبيعية والعمرانية والاجتماعية والفنون والآداب والصحة والاشغال اليدوية العملية . وصار التعليم قسمين احدهما خاص للافراد . والثاني عامٌّ للامة

وقسم نظام التعليم الى ابتدائي وثانوي وعالٍ واعتني بالزراعة والصناعة والتجارة والرياضة البدنية وانشئت الوزارات لادارة المدارس فصارت خلاصة نظام التعليم في اوربا واميركا اليوم مبنية على الاصول الآتية :

١ — وجوب انشاء الحكومة للمدارس الوافية بحاجة البلاد

٢ — ادخال كل طالب الى المدارس بين سن السابعة والرابعة عشرة

٣ — اعداد اساتذة في مدارس خاصة بهم لارتقاء فنّ التدريس

٤ — مراقبة المدارس بتيقظ واعتناء واصلاح خللها

واما خلاصة نظام التربية فبنيت على المبادىء الآتية :

١ — التربية الجسدية بالرياضات والممرّنات

٢ — التربية العقلية وغايتها تعليم الاعتماد على النفس

٣ — التربية الادبية لانشاء الاخلاق الراقية . وخلاصة الخلاصة هي :

ان التربية الكاملة تبتدىء بتثقيف العقل . ولا تتمّ ولا تكمل الاّ بتقوية الارادة وتحصينها

واختلفت اساليب التربية عند الامم بحسب اجناسها فقام المسيو دي مولان الفرنسي وانتقد مبدأ التربية في فرنسة بكتابه (سرّ تقدم السكسون) الذي نقل الى العربية كما نقل الى جميع اللغات

ونتيجة الابحاث الماضية ان فن التربية والتعليم كان عند القدماء ممتزجاً فكانت (التربية الحربية) تقوي الاجسام وتبثّ روح الحشونة حتى في الترويض البدني مثل مصارعة الرومان . و (التربية الفنية) تدمث الاخلاق مثل تروّض بعض اليونان باتقان اهم الفنون الجميلة اي الشعر والموسيقى والنقش والتمثيل والرقص

فكان التعليم خاضعاً لرغائب الامة لا مطبقاً على حاجاتها من العمران وتهيئتها للرقي وشتان ما بين الغرضين

فصار ذلك الفن المدرسي اليوم يقوم بالذرائع الآتية وهاك اهمها

تقوية العقل والجسد . فبني التعليم الحديث على علم النفس (بسيكولوجيا) ومنافع الاعضاء (فسيولوجيا) وعلم الاخلاق اوالفلسفة الادبية.والفلسفة العقلية المتعلقة بعلم وظائف الدماغ (الفرونولوجيا) واشباهها

واذا حصرنا الابحاث بكلمات قليلة نجزم ان المدارس القديمة كانت تثقف الذاكرة فقط وقلما تعتني بتثقيف العقل والطبع بتقوية الجسد فصارت المدارس الحديثة تروض الجسد والعقل والطبع اكثر مما تروض الذاكرة وحدها

فاعتمد في المدارس الحديثة على العلم العملي والنظري وكانت لهُ اليد الطولى في تحسين مناهج التعليم

وكان تعريف التعليم قديماً : ابلاغ العلوم الى ذهن المتعلم — ومقياسهُ الكمّ لا الكيف فصار الغرض الرئيسي منهُ الآن : تقوية العقل نفسهِ بقواهُ المختلفة وتوفيق موضوعات الدرس وكيفيات التدريس لاحوال هذه القوى — فصار مقياسهُ الكيف اولاً والكمّ ثانياً . وهذا انقلاب تام في فني التربية والتعليم ولذلك قال احد علماء الافرنج اليوم :

ان التربية هي تكييف قوى الانسان على احسن حال اي تقوية شواعره والتعليم تبليغ المعرفة الى الانسان من الخارج

واطلق اسم (بيداغوجي) اليوناني على الفنين وهو مركب من (بيد) اي اطفال و (أغوجي) اي هداية فمعناه هداية الاطفال

ولقد لخّصت تاريخ هذين الفنين بهذه العجالة وافردتُ مقالة خاصةً لهما عند العرب . وفيها اسماء المؤلفات عندهم بهما ايضاً مع انتخاب اشياء منها تدلُّ على ما عرفوه منهما ستنشر في جزء آتٍ

وفي مجلة المقتطف هذه ابحاث كثيرة في التربية والتعليم جديرة بالمطالعة في مجلداتها المختلفة فليرجع اليها مجبو التقصي والاستقراء لانها منتخبة من اقوال مشاهير الكتبة والاساتذة والعلماء

اسكندر عيسى المعلوف